المنار

١٣١٥

﴿ يوم السبت ١٠ محرم سنة ١٣١٧ الموافق ٢٠ مايو ـ ايار ـ سنة ١٨٩٩ ﴾

﴿ التصرف في الكون ﴾

(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم ان كيدي متين)

واحسرتا على أمة أعطيت أمثل التعاليم . وهديت الى الصراط المستقيم . فألبست تاج السيادة . وأفرغت عليها حلل السعادة . ثم ماعتمت . ان حرفت وانحرفت . وتمزقت بعد ما اجتمعت . حرفت التعاليم فاشتبه عليها الباطل بالحق واتبعت السبل فتفرقت بها عن سبيل الحق . وكانت أمة واحدة . فأمست شيعا متعددة . فذاق بعضها بأس بعض . ثم امتهنت في جميع بقاع الارض . (انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون)

سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا في معرفة المنافع والمصالح باسبابها . واتيان البيوت من أبوابها . ويحصل هذا بالنظر والتأمل . والاختبار والتعقل . وبناء اللاحق . على عمل السابق . حتى تظهر السنن الكونية . والنواميس الطبيعية . التي لا يضل من اهتدى اليها . ولا يصل الى الغاية الا من سار عليها . ولكن دون الوصول الى معرفة سنن الله في خلقه عقبات . وفي طريق

النظرين ـ العقلي والحسي ـ شبهات (قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون)

ما أعظم عناية الله بالانسان منحه أنواعاً من الهداية ليصل بها الى سعادته ـ الالهام الفطري والوجدان الطبيعي والمشاعر الظاهرة والباطنة والعقل والدين وكل هداية من هذه الهدايات تصلح مايقع من الخطأ الذي يعرض للهداية الاخرى ولا يصل الانسان الى حد كماله الا بمجموعها ولكن الانسان خلق ضعيفا فمع هذه الهدايات كلها لم يزل الضلال آخذاً بزمامه والشقاء في شعوبه ضارباً بجرانه وما ذلك الا لغلبة ناموس الارتقاء التدريجي على جميع هذه الاشياء ولا بد ان يصل الانسان به الى كماله ولو بعد قرون فانتظروا انا منتظرون

الدين أعلى أنواع الهداية ومرشدها ومدبرها وقد سار كغيره على سنة الارتقاء فكان آخره (وهو الاسلام) اكمله والى ذلك الاشارة بما جاء في انجيل يوحنا عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من قوله (١٥ ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ١٦ وانا اطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الابد) اي تثبت تعاليمه فلا يأتي بعدها تعاليم الهية ثم قال (٢٦ والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ماقلته لكم) ومعلوم انه لم يبعث نبي علم البشر كل شيء يحتاجونه في سعادتهم الا نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام فموسى جاء بشريعة عملية وعيسى جاء باخلاق روحية ومحمد علم الناس العقائد والاخلاق واحكام الشرائع بانواعها وجمع بتعليمه بين مصالح الروح والجسد ومنافع الدنيا والآخرة ووفق بين العقل والدين وارشد الى سنن الكون والاعتبار بها فكان من مقتضى هذه التعاليم ان تكون اتباعه اسعد الناس

حالاً وان يسودوا على سائر الامم ولقد كان هذا كله ثم اتبعوا سنن من قبلهم فلما زاغوا عن ذلك الصراط المستقيم في اخلاقهم واعمالهم ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين

قال لهم هذا الدين اطلبوا الاشياء بأسبابها (واتوا البيوت من ابوابها) وارشدهم الى ان سعادتهم وشقاءهم نتيجة اعمالهم وانه (لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فقام فيهم محرفون زعموا انه ليس في وسعهم شيء من العمل ولا طاقة لهم على القيام بمصالحهم ومنافعهم زاعمين انهم يعظمون الله تعالى بمصادمة فطرته ومصادرة شريعته وقد فندنا هذا المذهب في مقالة (الاعتماد على النفس) من الجزء الماضي وهو المقبة الكبرى في طريق الاصلاح الاسلامي وانشأنا هذه المقالة لتمهيد عقبة اخرى ضررها يوازي ضرر الاولى في الحيلولة بين الامة وسعادتها وان كانت في حقيقتها مناقضة للأولى عقلا ودينا ألا وهي عقيدة تصرف بعض العباد في الكون

أليس من العجيب ان يسلب قوم انفسهم العمل الثابت لهم بالوجود والوجدان سواء كان بمبداه او بغايته لاجل تعظيم جانب الالوهية التي منحتهم اياه ثم يزعمون ان منهم من يتصرف في الكون ويقدر على قلب نواميسه وتبديل سننه وتحويلها فيسعد ويشقي ويفقر ويغني من غير سبب غير مجرد تصرفه وذلك او الاستعانة بطلاسمه مما اختص الله تعالى بالقدرة عليه من دون عباده كما هو ثابت بالدلائل العقلية والنقلية جميعاً . أليس من الجهالة العمياء ان تنبذ البراهين العقلية وتصرف الآيات القرآنية عن ظواهرها لاجل تصحيح هذه المسئلة التي ما انزل الله بها من سلطان ؟ اليس من البلاء العام ان تكون قلوب معظم افراد الامة متعلقة بالاضرحة والقبور وبجماعة من

الدجالين والمشعوذين . او البله والمجانين . معتقدة بهم انهم يدفعون مصاباً . ويزيلون اوصاباً . او يملكون نفعاً واسعاداً . وينيلون هداية ورشاداً . بمجرد اسرارهم الباطنيه . وقواهم الغيبية ؟ اليس من الانحراف عن الدين ان نلهج الالسنة بالاموات . وتستعين بالمظام الرفات . كلما نزل خطب . او الم كرب ؟

هذه العقيدة المضرة نفث سمها في روح الامة الاسلامية قوم من مدعي الصلاح والارشاد الذين ومقتهم العامة بين الاعتقاد وذلك بعد امتزاج المسلمين باهل الملل الاخرى الذين خضعوا لرؤسائهم الروحيين خضوعاً اعمى بل اتخذوهم اربابا . وجعلوهم عن الحضرة الالهية نواباً . وما من امتين تمازجان الا ويسري لكل واحدة من الاخرى شيء مما هي عليه تأخذه بزمته او تصبغه بغير صبغته . ولقد تلاعب الدجالون بعامة هذه الامة فزعزعوا بمثل هذه الاوهام عقائدها . وهدموا بالتمويهات قواعدها . طلبا للمال والجاه . ولا حول ولا قوة الا بالله . ولقد آل بهم الامر الى جرأة افسق الفساق وافجر الفجار من شيوخ الطريق على دعوى التصرف في الكون والانتقام ممن لايخضع له فضلا عمن ينال منه بقول او عمل ويستدلون على ذلك بما لايخلو عنه الكون من مصائب تنزل بأعدائهم لحصول اسبابها الطبيعية وبمثل هذا يستدل المعتقدون بتصرف الاموات يقولون حلف فلان بالولي الفلاني كاذباً فرماه بسهم امرضه او امات ولده او قريبه ونحو ذلك ولا يقولون ذلك فيمن يحلف بالله كاذباً ويوجد في المسلمين ألوف كثيرة يتجرؤن على الحلف بالله كذباً ولايحرك أحدهم لسانه بالحلف بالولي او الشيخ الذي يعتقده لاسيما اذا كان عند قبره وقد صرح الفقهاء بانه لايجوز الحلف بغير الله مطلقاً وقالوا من حلف بغير الله معظماً له كتعظيم الله تعالى في ذلك كان كافراً فماذا عساهم

يقولون فيمن يزيد في تعظيم الشيخ على تعظيم الله تعالى كالذي علمت

ومن هؤلاء الدجالين من يسعى بايقاع الضرر بعدوه باسبابه العادية لاسيما النفوذ والجاه الدنيوي كمساعدة الحكام الظالمين وغيرهم ثم يدعي بعد ذلك انه تصرف فيه بسره ومدد شيوخه وأجداده فيقول ان فلاناً تكلم فيّ فقطع لسانه وفلاناً ناوأني فعزل من وظيفته وفلاناً آذى بعض أتباعي فحبس ونكب ويغفل الانوك عن وقوف الناس على أسباب هذه النكبات وعرفانهم ان مثلها من تصرفات الاشرار لا من تصرفات الاسرار ولا يعتبر المغرور بما ينزل بانصاره من البلاء كالنفي والجنون وتنف اللحى وقلع العيون بل بما ينزل به نفسه أحياناً وذلك لانه يأوّل لنفسه عند نزول البلاء بأن أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل فاذا كشف عنه قال انما نزل به ما نزل لتظهر اسراره وعناية الله تعالى به نعوذ بالله من الاستدراج بالغرور والتغرير

ألم يعلم المدعي الجاهل بل الخادع المتجاهل ان الناس يعلمون بان اكابر شيوخهم كانوا يشتمون ويهانون وما كان يحل بمن اهانهم بلاء * هذا الشيخ احمد الرفاعي الكبير (رحمه الله تعالى) كان يغمطه ويغمزه اكابر العلماء في عصره (١)

---

(١) ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني (رحمه الله تعالى) في كتاب لطائف المنن (صفحة ٤١١ و ٤١٢ من النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الاميرية سنة ١٢٨٨) ما نصه (وكان الشيخ سالم السلماباذي يحط هو وأصحابه كثيراً على سيدي أحمد بن الرفاعي فلقيه مرة سيدي أحمد في طريق ومعه أكابر أصحابه فأول ما رآهم سيدي أحمد نزل عن دابته وكشف رأسه وقبل لهم الارض (انظروا وتأملوا) وقال لاصحابه بالله عليكم ان اغلظوا على القول فاصبروا ساعة فلما نيل يد السلماباذي ورجله وهو راكب (اعتبروا) تلقاه بكل قبيح وشتمه وقال له اي أعور أي دجال أي مستحل الحرام أي مبدل القرآن أي ملحد حتى قال له أي كلب هذا كله وسيدي أحمد يقبل يده ويقول

ولم ينقل انه تصرف بأحد منهم فقطع لسانه مثلا مع ان اكثر اهل طريقته يدعونه اكثر مما يدعون الله تعالى وقد نسبوا له العظائم حتى قالوا انه كان يتصرف في الدنيا والآخرة وكان ببيع قصوراً في الجنة كما يفعل بعض رؤساء الاديان الاخرى ويكتب بذلك صكوكاً (٢) ويغفل الخادع والمخدوع عما

أي سيدي بفضلك ارض عني وأنا خادمك وحلمك يسعني) الخ وذكر في الصفحة ٤١٢ أيضاً مانصه (وكان الشيخ ابراهيم الاعزب يقول كان البستي (هو من أكابر العلماء) يحط على سيدي أحمد فارسل مرة له كتاباً فيه أي أعور أي دجال أي مبتدع أي من جمع بين الرجال والنساء الكلب بن الكلب (تأملوا) فارسل له الجواب صدقت فيما قلت جزاك الله عنا خيراً فلا تخليني من دعائك ياأخي وحلمك يسعني) ثم قال الشعراني (وروي الشيخ عبد الرحمن القوصي رضي الله تعالى عنه بسنده الى يعقوب خادم سيدي أحمد قال كنت كلما لقيت الشيخ عبد الله الهندي يقول لي احمل هذه الرسالة الى شيخك وقل له أي ملحد أي باطني ونحو ذلك من الالفاظ القبيحة فكنت أخبر سيدي أحمد بذلك فيقول لي قل له صدقت) اه

(٢) من ذلك مارأيته في البهجة الرفاعية عند بني الصياد في طرابلس الشام وهو ان سيدي أحمد اشترى من الشيخ اسماعيل بن عبد المنعم شيخ أونيه بستاناً بقصر في الجنة وكتب له بذلك صكا بخطه هذه صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا مااشتري اسماعيل من عبد المنعم من الفقير الحقير أحمد بن أبي الحسن الرفاعي الضامن على كرم الله سبحانه وتعالى قصراً في الجنة بجميع حدود أربعة الاول الى جنة عدن والثاني الى جنة المأوى والثالث الى جنة الخلد والرابع الى جنة الفردوس بجميع ولدانه وحوره وفرشه وأسرته وأنهاره وأشجاره عوض بستانه والله شاهد وكافل) ثم أنه طوي الكتاب وسلمه اليه اه والقصة مبسوطة في ذلك الكتاب وفيه من أمثالها كثير وقد أتينا في كتابنا (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) على العجب العجاب من مثل ذلك وسيطلع عن قريب ان شاء الله تعالى

اورده الامام حجة الاسلام الغزالي في الرد على الذين يدعون ان نزول البلاء بأعدائهم يكون انتقاماً لهم على سبيل الكرامة من ان الذين كانوا يؤذون الانبياء ويقتلونهم ما كان يحل بأشخاصهم البلاء والعذاب فهل كان هؤلاء الاشقياء او الصلحاء اكرم عند الله من الانبياء (سبحانك هذا بهتان عظيم) ومما يقضي بالعجب ان مسئلة التصرف في الكون

لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها وحتى سامها كل مفلس

يدعيها الدجال المسترسل في الفجور الذي اغواه الشيطان بشهادة الفساق أو الكفار له بالقطبية والغوثية من مراتب الولاية لينالوا منه مالاً او جاهاً وحسب العاقل هذا في النفور عن اهل هذه الدعوى وتكذيبهم فكيف والوجود يكذبهم والشواهد التي اشرنا اليها تفند مزاعمهم وفوق ذلك كله كتاب الله يخاطب نبي الله ارشاداً لعباد الله بمثل قوله (قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً) وقوله (قل اني لا املك لكم ضراً ولا رشداً) نعم ان الدجالين قد جعلوا مسئلة التصرف من باب كرامة الله لاوليائه وسيأتي الكلام على الكرامات ان شاء الله تعالى

استنهاض همم

(٣)

قال قائل من مستمعي حديثي واذا تخاذلت والعياذ بالله تلك الحكومات وتباطأت عن الشروع في تأسيس هذه الوحدة ووضع مقدمات الاصلاح وأخفق سعي عقلاء الامة العاملين على النهضة الساعين في تنبيه الافكار وتنوير الاذهان كيف تكون النتيجة والام تؤول حال المسلمين والى أي